رَفْضٌ

إلى «اليس مونرو»
«تلك التي بعثرَتْ الشَّجَنَ نُتَفاً في أروقةِ الحكايا فمَن يدري ربَّما يصلُكِ إهدائي يوماً»
(اُتْرُكُوا نُوْرَ لِبَعْضِ شَأْنِهَا واذْهَبُوا أَنْتُمْ لِحَفْلِكُمْ)

رفضتُ – كعادتي - الخروجَ برفقَتِهِمْ ، تعلَّلْتُ ببعضِ أشياءٍ لابُدَّ من الانتهاءِ مِنْها ، هَمَسَتْ زوجةُ أخي في أُذُنِي : لا تنسَي .. أَوْمَأْتُ ضاحكةً : لا تَخَافِي .
خرجُوا جميعاً ، أُمِّي ، أُخْتِي ، أَخَوَايَ ، زوجةُ أخي الأكبرِ ليَحْضُرُوا جميعُهُم احتفالاً بليلةِ رأسِ السنةِ بينما ظللتُ ماكثةً في البيتِ لا أبرحُهُ. كانَ عَلَيَّ أنْ أُنَظِّفَ الحائطَ الثالثَ من غُرفتي ، كَيَّ قميصينِ لأخي الأصغرِ، كما كانَ عَلَيَّ تثبيتُ حمَّالةِ القميصِ الَّذي أوصتْنِي به زوجةُ أخي ، ترتيبُ المساندِ ، غَلْيُ اللَّبَنِ ، وضعُ البطاطا في الفُرْنِ وأيضاً كنسُ الرَّدْهَةِ ومسحُ شاشةِ التلفازِ من الترابِ ، كلُّ هذه الأشياءِ كان عَلَيَّ الانتهاءُ منها قُبَيْلَ عودَتِهِمْ .لأيامٍ بعيدةٍ وأنا أكرِّرُ فعلَ ذلكَ ، تحديداً منذ أربعةِ عشرعاماً، منذُ تلكَ الأيامِ التي وَقَعَتْ فيها حادثةُ اغتصابي علي مرأى ومسمعٍ من الجميع . تملَّكَني الصَّمْتُ واجتهدتُ لانجازِ أعمالِ البيتِ التي لَمْ يطلبْهَا أحدٌ منِّي ، لكنني كنتُ أهرعُ من تلقاءِ نفسي إلى فعلِهَا ربَّما حاولتُ جاهدةً وقتَها أنْ أُوْغِلَ في الصَّمْتِ المُطْبِقِ بينما يدايَ تجتهدانِ أنْ تُنْجِزَشيئاً لعلَّني أُكَفِّرُبه عنْ خطيئتي . .
ولم أكنْ بصمتِي أَتَسَتَّرُعلى رجُلٍ أحببتُه أو وَثِقْتُ كثيراً بكذبِهِ، بقدرِما كان صمتي إذعاناً تاماً لسلطةٍ هوجاءَ اقتلعتْنِي كريحٍ عاتيةٍ ، قذفتْنِي في الهواءِ كريشةٍ ثمَّ طَوَّحَتْ بأحلامي دونَ رَجْعَةٍ ،جرفتْ كلَّ المعاني والأمنياتِ التي أورقَتْ كبراعم صغيرةٍ بداخلي بينما تركتْنِي أنتفضُ هذياناً من هَوْلِ طُغيانِها .. ظلَّتْ تفاصيلُ ذلك اليومِ شاخصةً أمامي لا تبارحُنِي كان هذا يومُ السَّابع عشرَمن نوفمبر، وقتَها كنتُ طالبةً جامعيةً في السنةِ الثالثةِ بكليةِ الآدابِ قسمِ اللغةِ العربيةِ، أُعَلِّمُ

الأطفالِ الصِّغارَ نطقَ الحروفِ الأبجديَّةِ ،وأهوى كثيراً شُغْلَ الحِيَاكَةِ .
حدثَتْ الواقعةُ بينما كنتُ في طريقِ عودتي إلى البيت بعدما أنهيتُ محاضراتي، كنتُ ممسكةً بأكياسِ البطاطسِ والبصلِ الَّتي اشتريتُها لأمّي ، أذكرُ جيداً أنَّني كنتُ أضع على جفوني ظِلاً مخملياً بلونٍ أزرق ، و أرتدي سُتْرَةً زرقاءَ بينما تختبئ بقعرِ حقيبتي نسخةٌ ورقيَّةٌ رخيصةٌ من رواية» التَّحَوُّلِ» كنتُ قد اشتريتُها مما ادخرته مِن مصروفي ... وعند مروري بأحدِ الشَّوَارعِ الضيقةِ هَجَمَ عليَّ أحدهُم من الخلفِ وغَرَزَ نَصْلَ السكينَ الحَادَّ في أوردةِ رقبتي ثم ساقَني كما تُسَاقُ البهائمُ إلى حتفِهَا !! :»لَنْ نسكتَ» هكذا قالها أبي الذي أَحْنَتِ الواقعةُ رأسَهُ فتحوَّل كَهْلاً ثُمَّ ماتَ غمَّاً ،وأمّي الَّتي فارقتْهَا البسمةُ إلى غيرِ رَجْعَةٍ ، وأخَوَايَ اللَّذانِ أُصِيبَ كلاهُمَا – باللَّعْثَمَةِ وأصبحا لا ينطقانِ بجملةٍ واحدةٍ دونَ ارتباكٍ أوتخبُّطٍ ...!
ووكَّلْنَا محامياً بارعاً للغايةِ لكنَّهُ جاءَنَا صبيحةَ يومٍ غائمٍ لعقدِ صفقةٍ أنجو فيها بحياتي وحياةِ أسرتي فقد كان مَن قام بالاعتداء علىَّ ابناً مدلَّلاً لواحدٍ من رجالِ الاقتصاد الكِبار جداً – حُوتاً ضَخْمَاً – كما كانوا يطلقونَ عليهم في صحافتِنا وأنَّهُ قد جاءَ بالقربِ من حَيِّنَا مع أحدِ أصدقائِهِ طلَبَاً لبعضِ الموادِّ المخدرةِ الَّتي كانَ يتَعاطَاها..!
أُسْقِطَ في يدِ المحامي، في يَدي، في يَدِ أسرتي فَرْدَاً فَرْدَاً ولَمْ نستطعْ لأنفسِنَا شيئاً ، وانتهتِ القضيةُ باتِّهَامٍ لُفَّ كحبلٍ مجدولٍ بدقَّةٍ حَوْلَ رقَبتي ،وإثباتَاتٌ شَتَّى بشهودٍ ثِقَاتٍ بأنَّني ما كنتُ سوى داعِرَةٍ مارستُ ذلكَ مَعَ عِدَّةِ أشخاصٍ آخرين..!
وَخَرَجَ – هَاتِكُ عِرْضِي - بريئاً تماماً ، مُهَلِّلاً،وراقِصَاً ومكثتُ في البيتِ ، اجترتُ مراحلَ عِدَّةٍ مِنْ»متلازِمَةِ صَدْمَةِ الاغتصابِ» بدءاً مِن المَرْحَلَةِ الحادَّةِ من القَيْءِ والغثيانِ والقلقِ والارتعاشِ والإحساسِ العنيفِ بالقذارةِ إلى الخوفِ والهلعِ والحَيْرَةِ والانفجارِ المباغتِ في البكاءِ حتَّى مرحلةِ التكيفِ التامِّ مع أحاسيسي الداخليةِ لِمَا حَدَثَ ، ظللتُ أتأرجحُ ما بين الكراهيةِ ورغبةٍ جارفةٍ في الانتقامِ إلى أنْ هَدَأْتُ تماماً أوْ هكذا أقنعتُ كلَّ من حولِي لكنَّني أبداً لَمْ أستطعِ الخروجَ من محنةِ التَّحَوُّلِ مرتينِ مرَّةً عندَ وقوعِ الحادثِ وفُقْدَانِي لعذريَّتي ومرةً أخرى عند رُضُوخِي لقبولِ التفاوضِ وتحطُّمِ براءَتي تماماً فلمْ أخطُ إلى الشارعِ بعدَها ولمْ أحاول العودةَ إلى دراستي .
وكانَ لابُدَّ لي أنْ أتشبَّثَ بشيءٍ يَحُولُ بيني وبينَ محاولاتي المتتاليةِ للانتحارِ. رحتُ أمارسُ عادةً غريبةً استطعتُ من خلالِها أنْ أَقْوَى وأبْرَأَ قليلاً ، ربَّما بَدا هذا الشيءُ مبهما لكنَّني حينَ بدأتُهُ وواظبتُ كثيرا عليهِ اتَّسَعَ الأفقُ أمامي كثيراً رحتُ أجمعُ

أسماءَ كلّ مَنْ كانَ ضليعاً في القضيَّةِ مِمَّنْ كان شاهداً حقاً أو زُوراً مِمَّنْ وقفَ بجانبي صِدقاً أو هدَّدَني بقدرتِهِ عَلَيَّ ، وأصنعُ منهُ بطلاً لروايةٍ خياليَّةٍ..!!

وفي الرواياتِ انبثقتْ الشُّخُوصُ بمعانٍ مغايرةٍ واكتستْ لحماً وتدفَّقَتْ فيها الدماءُ، وتزيَّنَتْ بأفقٍ أكثر اتساعاً وتَشَظِيَاً بينما أمسكتُ هذه الشخوصَ بيدي فأنارتْ ليَ الطريقَ وجعلتْني أعرفُ،وأتعلَّمُ،واكتسبُ مهاراتِ التنقيبِ عن المعادنِ بدءاً من الذَّهَبِ والفِضَّةِ وانتهاءً ببعضِ قطعِ الحديدِ الصَّدِئَةِ ..!!

وبينما كانتْ زوجةُ أخي تأتي لي بالأوراقِ والأقلامِ كنتُ أَخُطُّ حروفَ الرِّوَايَةِ كلّها بخطٍّ يَدِي وأصممُ أغلِفَتَهَا بنفسي وأصنعُ منها نسختينِ ثُمَّ أبحثُ عن عنوانِ أحدِهِمْ وأرسلُ إليه بنسخةٍ وعلىها إهداءٌ باسمي :

أنا «نور متولي» هلْ مازلتَ تذكُرُني ..؟؟ أُهْدِي هذه النسخةَ مِن الرِّوَايَةِ إلى عزيزي «جريجور سامسا» الذي استيقظَ صباحاً بعد أحلامِهِ - أقصدُ أفعالِهِ - المزعجةِ فوجدَ نفسَهُ قَدْ تحوَّلَ إلى حشرةٍ هائلةِ الحَجْمِ- أقصدُ بغيضةَ المنظرِ- فدخلَ العالمَ الذي نعيشُ وفعلَ كذا وكذا وأذكرُ بدقَّةٍ ما فعله كلُّ واحدٍ تحديداً في قضيَّتي . مازلتُ أتذكرُ اليومَ الذي جاءَ فيهِ أبي بعدما تسلَّم نسختَهُ ليسألَني مندهشاً إنْ كنتُ أعتبرُهُ متواطِئاً فأجبتُه بثباتٍ : نعم ...!

وجاء يوماً كانوا فيهِ بالخارجِ يحتفلونَ بينما كنتُ أُرَتِّقُ جواربَ أخي عندما سمعتُ دقاتٍ على البابِ وعندما فتحتُ البابَ وجدْتُ رجلاً بابتسامةٍ لزجةٍ يلهثُ حولَها الذُّبَابُ ، ويبلغُنِي أنَّ «الحوتَ الأكبرَ» يشكرُني على

هديتي وأَرْسَلَ لي مبلغاً من المال لأشتريَ ما يلزمُني .. !

بُهِتَ الرجلُ حينَ أخذتُ المبلغَ شاكرةً ، وأخبرتُهُ أنْ يُبْلِغَ (جريجور) امتناني و تقبُّلي النصيحةَ منهُ .

وفي صباحِ اليوم التالي أرسلتُ إليه نسخةً أُخرى من الروايةِ وعليها نفسُ الإهداءِ إلّا أنني أضفتُ بعضَ الكلماتِ الأخرى : إلى (جريجور) الذي تَعِبَ كثيراً وأثقلتْهُ الدُّنيا . السُّمُّ الذي وضعتُهُ لكَ عَن طريقِ أحدِ رجالِكَ- في فنجانِ القهوةِ المفضَّلِ لديكَ لنْ يَقْتُلَكَ ، ولكنَّه سيجعلُكَ تُعاني من ألمٍ حادٍّ بالمفاصلِ وأعتقدُ أنَّكَ عاينْتَ ذلكَ بنفسكَ فقدْ بدأتَ تَشْكُو من ركبتِكَ اليُمنى..أليس صحيحاً ما أقولُهُ لكَ.. ؟؟!!

كنتُ دائماً ما أراهُ عَبْرَ الشَّاشَةِ، وأنَا أَحِيكُ الملابسَ واضعاً ساقاً على ساقٍ حذاؤُهُ جاحظٌ في وجهِ مَنْ يحاورُهُ، يتحدَّثُ عن نجاحاتِ أولادِهِ بما فيهمْ قاتِلي ..!!

كنتُ أقارنُ ساقَيْهِ المستقرتَيْنِ فوقَ بعضِهِمَا، بِسَاقَيَّ المنهكَتَيْنِ والمتباعدتَيْنِ بقسوةٍ

، وخدُوشِي الَّتي لمْ تبرأْ من وقتِ الحادثِ ، فَأُغْمِضُ عيْنَيَّ كثيراً وأتنبَّأُ بالأحداثِ القادمةِ ثمَّ أبتهلُ صامتةً .

رائحةُ البطاطا كانتْ تومِئُ تماماً بنضجِهَا بينما كنتُ قد ثبَّتُ حمَّالَةَ قميصِ النَّوْمِ جيَّداً حينَ سمعتُ طَرْقَاً خافتاً على البابِ فهرولتُ مُسْرِعَةً لأفتحَ لهُمْ : أكيد لم يعجبْهُم الاحتفالُ فعادوا مسرعِينَ إلى البيتِ لكنَّني فوجِئْتُ بالحُوتِ الكبيرِ واقفاً وجهاً لوجهٍ أمامي وقد تحوَّل إلى كائنٍ آخر مختلفٍ تماماً : كتفاهُ متهدِّلَتانِ،عيناهُ غائرتانِ ،صوتُهُ متلعثمٌ يسألُنِي شيئاً واحداً : «الترياقَ» لهذا السُّمَّ الَّذي وُضِعَ لهُ فأصابَ مفاصلَهُ بألمٍ شديدٍ وتيبُّسٍ .

ضحكتُ كثيراً كثيراً، ساخرةً بشدَّةٍ من ندمِهِ واستعطافِهِ على طلبِهِ وأجبتُهُ بصوتٍ عالٍ زَلْزَلَ الجدرانَ الأربعةِ : انتظرتُكَ كثيراً كنتُ أعلمُ يقيناً أنَّكَ ستأتي، لكنْ لا ... لَنْ أُعطِيَكَ الترياقَ، فافعلْ بي ما تستطيعُ، عذِّبْنِي كما تريدُ، وأطلقْ عَلَيَّ كلابَكَ قَدْرَما تستطيعُ ..!!

خرجَ ذليلاً مقزّزاً ، يجرُّمفاصلَهُ المتيبسةَ، محاولاً تسلُّقَ حافَّةِ (الدرابزين)،دموعُه المالحةُ تصنعُ لوجْهِهِ شرنقةً لزجةً ،ووجدتُني دون ترتيبٍ أعاندُ تردُّدِي وارتباكي فأرتدي ملابسي فَرِحَةً أَلُفُّ قِطَعَ البطاطا في ورقِ (الفويل) الفِضيّ ثم أهاتفُ مديرَ دارِ النشرِ ليهبطَ مُسْرِعَاً و أهاتفُ إخوتي كَيْ يحجزوا لنَا مقعدَيْنِ عساني أستطيعُ أنْ أَلْحَقَ ما فاتَنِي مِنْ حَفْلٍ - لَمْ تنتهِ فقراتُهُ بعدُ .. بينَما في ذاتِ الوقتِ أناقشُ الناشرَ في بَعْضِ الْأُمُورِ الصَّغِيرَةِ والعَالِقَةِ بينَنَا .